

سارق النار

كتب الشابي عدداً من القصائد الهامة تدور كلها حول فكرة (إرادة الحياة) وكتب قصائد عن فكرة (الموت) وكتب أيضاً قصائد عن فكرة لا نستطيع تسميتها إلا بأنها فكرة (البقاء للأقوى) وفي هذه القصائد يمجّد القوة ويثبت أنها سر الحياة .

وهذه الأفكار الثلاث لم تظهر في شعره بصورة عرضية ، بل ظهرت بصورة قوية تدل على أنها كانت أفكاراً تشغل عقله وقلبه ، ولم تكن مجرد خواطر تمر بباله فيسجلها في بيت أو بيتين كما كان يفعل الشعراء التقليديون ، فشوقي مثلاً عندما أراد أن يعبر عن فكرة (البقاء للأقوى) كتب هذا البيت :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ومع ذلك فلا يمكن أن نقول إن شوقي كان يدعو إلى هذه الفكرة أو ينادى بها فمن الصعب أن نجد في شعره بيتاً آخر بهذا المعنى ، وإذا وجدنا بيتاً أو عدة أبيات ، فإننا لن نجد قصيدة كاملة تدعو إلى هذه الفكرة ، فالفكرة كانت بالنسبة له مجرد خاطر من الخواطر ، ولم تكن نظرية تشغله وفلسفة تملأ حياته .

على العكس كان الشابي ، فهو شاعر فكرة شاملة ، وليس مجموعة من الخواطر المتناثرة المبعثرة ، ومما لا شك فيه أن حياته القصيرة لم تتح له أن يبلور فكرته الشاملة ويصعد بها إلى مستوى النظرية الكاملة ، ولكن الحقيقة — كما أشرنا من قبل — أنه واحد من الشعراء العرب النادرين ، سواء في العصر الحديث أو العصور القديمة ، والذين حاولوا أن يكون لهم فكرة شاملة عن الحياة والإنسان ، وحاولوا أن يكتبوا شعرهم يوحى فلسفة تفسر لهم العالم ، ويحكموا بها على الأشياء ، وحاولوا أيضاً أن تكون هذه الفلسفة عميقة الجذور ، تمس المشاكل الجوهرية في الحياة الإنسانية ولا تقف عند المسائل السطحية والحكمة الساذجة ، الشائعة على جميع الأفواه ، والتي تشبه (أقراص الأسبرين) التي تسكن الألم السريع تسكيناً عاجلاً ، ولكنها لا تعالج الآلام الكبيرة ، وليس لها علاقة بتجارب الشعور الضخمة .

لم تكن فلسفة الشابي (قرص أسبرين) بل كانت إحساساً كبيراً ، وحلمًا بعالم مثالي فكر فيه الشاعر وأراد أن ينادى به دائماً ، وكانت أيضاً نظرة كلية إلى الإنسان فهو يؤمن بإنسان مثالي يدعو إلى وجوده بجرارة .

فمن أفكاره الهامة فكرة (إرادة الحياة) وهي فكرة أحسها أولاً ، ولكنها تبلورت عنده خلال قراءاته لجيران خليل جبران ، الذي نقل هذه الفكرة إلى الثقافة العربية عن مصدرها الأصلي ، وهو : الفيلسوف الألماني نيتشه ... فجدور فكرة الشابي عن إرادة الحياة تعود إلى طبيعته الخاصة أولاً ، ثم تعود إلى منبعها الثقافي وهو نيتشه .

وبالإمكان أن نلاحظ فكرة (إرادة الحياة) التي عبر عنها الشابي ، ودعا إلى أن ينتفض من خلالها الشعب والإنسان ، ويحاول أن يتخلصا بها من أوضاعهما التي تحمل رائحة الموت ... تستطيع أن نلاحظ هذه الفكرة في بعض العبارات التي تتردد كثيراً في شعر الشابي مثل : (شوق الحياة) و (صميم

الحياة) و (عزم الحياة) .

في قصيدته (الأشواق التائهة) يعبر عن إحساسه بالضياح بسبب بحثه
الدائم عن (صميم الحياة) حيث لم يجد تلك الصلة التي تربطه بهذا الجوهر
العميق :

يا صميم الحياة ! إني وحيد
يا صميم الحياة إني فؤاد
يا صميم الحياة أين أغانيك
مدلج تائه فأين شروقك ؟
ضائع ظامئ فأين رحيقك
فتحت النجوم يصغى مشوقك ؟

وفي قصيدة أخرى يقول :

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه
عزم الحياة ، إذا ما استيقظت فيه

وفي قصيدته المشهورة (إرادة الحياة) يقول :

ومن لم يعانقه شوق الحياة
فويل لمن لم تشقه الحياة
تبخر في جوها وانـدثر
من صفة العدم المتصر

وفي قصيدة أخرى عنوانها (إلى الشعب) :

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان
إن يم الحياة يدري حو اليك
أين عزم الحياة ؟ لا شيء إلا
أين الطموح والأحلام ؟
أين الخيال والإلهام ؟
فأين المغامر المقدم ؟
الموت ، والصمت ، والأسى ، والظلام

ثم يقول في مقطع آخر من القصيدة مخاطبًا (الشعب) :
يا إلهي ! أما تحس ؟ أما تشدو ؟ أما تشتكى ، أما تتألم ؟
مل همر الزمان أيامك الموتى وأنقاض عمرك المهتمدم

أما قصيدته القوية الناضجة (نشيد الجبار) فهي مليئة بهذا المعنى ، معنى إرادة الحياة رغم العقبات سواء كانت هذه العقبات من المجتمع أو كانت من الطبيعة التي تحمل الموت والفاء إلى الإنسان ، وقد جعل الشابى عنوان هذه القصيدة (نشيد الجبار) ، أو (هكذا غنى بروميثيوس) و (بروميثيوس) هو سارق النار من الآلهة فى الأساطير اليونانية ، لقد تحمل العذاب الذى فرضته عليه الآلهة فى الأساطير اليونانية ، لكى يقدم نار المعرفة إلى البشر ، كان قويًا وصاحب إرادة قوية إلى أبعد حد ، واختيار الشاعر لهذه الأسطورة ليستمد منها عنوانه هو تعبير عن المعنى العنيف الذى يدور فى نفسه ، وهو أن الإنسان إنما يعيش بقوة (إرادة الحياة) ، ويعيش بهذه القوة فيتجاوز العقبات والمصاعب والآلام التي تحيط به وتعمل على تحطيمه ، مثلما فعل (بروميثيوس) فقد انتصر على الألم وحقق فكرته وسرق نار المعرفة من الآلهة ليعطيها للبشر .

فى هذه القصيدة يقول الشابى :

سأعيش رغم الداء والأعداء
أرنو إلى الشمس المضيئة .. هازنًا
إني أنا الناي الذى لا تنتهى
كالنسر فوق القمة الشماء
بالسحب والأمطار والأنواء
أنغامه ، ما دام فى الأحياء

وأنا الخضم الرحب ليس تزيده إلا حياة سطوة الأنواء

.....

وأقول للجمع الذين تجشموا هدمى وودوا لو يخر بنائى
إن المعاول لا تهد مناكبي والنار لا تأنى على أعضائى

وفي القصيدة تحس بنفس الروح التي كانت تسيطر على نيتشه وهو يطرح فكرته المعروفة عن إرادة القوة في كتابه : (هكذا تكلم زرادشت) وإن كانت التزعة العقلية عند نيتشه تمتزج بالتزعة الفنية امتزاجاً قوياً ، بينما يعبر الشابي عن فكرته تعبيراً فنياً حاراً أكثر مما يهتم بالتعبير الفكري ، أى أنه لا يفسر الوجود الإنساني كله ويناقشه حسب فكرة إرادة الحياة ، بل يكتفى بتمجيد هذه الإرادة كحالة من حالات الوجود البشري .

نجد عند الشابي من الأفكار الفلسفية الأخرى فكرة (الموت) ، وهو يكتب عن الموت كثيراً ، ويعبر عنه تعبيراً فنياً عميقاً ، فمشكلة الموت تشغله بسبب أزمته الخاصة التي تتصل بمرضه الخطير ، فقد كان يشعر بأن الموت يتسلل إلى حياته ويحاول أن يقضى عليها ولذلك لم يغفل عن الشعور بالموت أبداً ، وسبب آخر من أسباب اهتمامه بمشكلة الموت يتمثل في الحالة الراكدة التي كان يعيش فيها الشعب من حوله ، لقد كان يجد في هذه الحالة نوعاً من الموت ، فإذا كان الشعور ميتاً والعقل ميتاً فإن الإنسان يكون معدوم الصلة بالحياة ، وليست الحياة عند الشابي في أعلى معانيها إلا يقظة الشعور ويقظة العقل . وهكذا كان الموت يواجه الشابي في كل مكان . كان يواجهه عندما ينظر في داخل نفسه فيجد الموت مزروعاً في أعز مكان من وجوده ، مكان العاطفة والشعور وهو القلب وكان يواجهه عندما ينظر إلى تجاربه الخاصة

فيجد حبيبته الأولى وربما الأخيرة قد ماتت وبينها وبين عالم الصبا خطوات ، ثم يجد أباه أيضاً قد مات وتركه وسط العواصف قبل أن يبلغ شاطئ الحياة ، ووجد الموت أيضاً ينشر صقيعه القاسى على المجتمع كله ، فالمرأة محجوبة مسجونة فى سجن اسمه البيت ، والحرية السياسية اعتقلتها الفرنسيون والباى ، والحرية الفكرية اعتقلها الكتب الصفراء والتقاليد الفكرية العتيقة ، إنه الموت ، والموت فى كل مكان .

ومن هنا وجد أن الموت هو (وحش) يفترس الأشياء الجميلة فى الحياة ، بل يفترس الحياة نفسها ، ولذلك فقد كان هذا الوحش موضوعاً هاماً لتأملات الشاعر .

ومن الواضح أن تفكير الشاعر فى الموت هو تفكير عميق يرفع الموت إلى درجة المشكلة الأساسية التى تواجهها الحياة وإلى درجة المشكلة الفلسفية التى يجب أن يفكر فيها الإنسان ، وهذا الموقف يختلف عن موقف كثير من الشعراء الآخرين وخاصة فى الأدب العربى الكلاسيكى ، فقليلاً ما كان الشاعر يفكر فى الموت كمشكلة فلسفية إنسانية ، بل كان يفكر فيه دائماً فى مواقف محددة هى مواقف (الرثاء) التى تتصل بمحادثة موت معينة لشخص من الأشخاص . أما الشابى فليس فى شعره كله سوى قصيدة رثاء واحدة لوالده بينما بقية قصائده عن الموت إنما تتناوله كمشكلة مستقلة .

وفى قصيدة من أجمل قصائده هى (فى ظل وادى الموت) يتحدث عن الموت بمعنى عميق من معانيه . فليس الموت فى هذه القصيدة هو موت شخص فحسب ، أو هو فناء يتسلل إلى ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل معناه العميق الحقيقى هى أن تصبح الحياة فارغة من المعنى ، أن تصبح بلا دلالة معينة ولا غاية معينة ، وعندما تمشى الحياة بلا غاية ، ويتأمل الإنسان الحياة فيجدها هوة فارغة صامتة لا تدل على شىء .. هنا يولد الموت ، ويطل الموت ليصنع

نحن نمشى وخلفنا هاته الأكوان
نحن نشدو مع العصافير للشمس
نحن نتلو رواية الكون للموت
هكذا قلت للرياح فقالت :
تمشى لكن لأية غاية ؟
وهذا الربيع ينفخ نايه
ولكن ماذا ختام الرواية
سل ضمير الوجود كيف البداية ؟

ثم ماذا هذا أنا في الدنيا
في ظلام الفناء أدفن أيامي
وزهور الحياة تموى بصمت
جف سحر الحياة ، يا قلبي الباكي
بعيداً عن لهُوها وغناها
ولا أستطيع حتى بكائها
محزن ، مضجر ، على قديمياً
فهي نجرب الموت هي

لقد خلعت الحياة من المعنى ، وخلوها من المعنى هو الموت ... فلماذا لا
يجرب (الشاعر الموت) . إن الموت عنده هو تجربة ، تجربة كبيرة قد تكشف
عن أشياء جديدة .

والفكرة — الثالثة — التي يهتم بها الشابي اهتماماً كبيراً هي فكرة (البقاء
للأقوى) وهي فكرة أخرى لها صلة بفلسفة القوة عند نيتشه ، وقد أخذها
الشابي أيضاً عن جبران ، وأخذها بالذات لأنها تجاوزت مع إحساسه الخاص ،
وتجاوزت مع تأملاته في الحياة وتأملاته في الطبيعة ، فالزهرة الضعيفة تذبل ،
والعصفور الصغير يقضى عليه الثعبان السام ، فالنتيجة التي وصلت إليها
الطبيعة هي نفسها التي تنطبق على حياة الإنسان والشعوب .

وقد عبر الشابي عن هذه الفكرة في أكثر من قصيدة ، وهذه الفكرة من

أركان فلسفة هذا الشاعر في الحياة ، فهو يدعو إليها الشعب ويناديه لكي يكون (قويا) حتى لا تبتلعه الحياة وتقضى عليه ، فالقوة هي ضمان الاستمرار والبقاء .

وأجمل قصيدة عبر فيها الشابي عن هذه الفكرة هي قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) فقد انقض الثعبان على (شحور) جميل وافترسه ، وقبل أن يموت العصفور كان يقول : ماذا جنيت أنا فحق عقابي :

لا شيء إلا أنى متغزل بالكائنات مغرد في غاي
ألقى من الدنيا حنانا طاهرا وأبثها نجوى الحب الصابي
أيعدُّ هذا في الوجود جريمة ؟ أين العدالة يا رفاق شبابي ؟
لا أين ، فالشرع المقدس هاهنا رأى القوى وفكرة الغلاب

وآخر صرخة يقولها العصفور وهو يلفظ أنفاسه :

لا رأى للحق الضعيف ولا صدى الرأى رأى القاهر الغلاب

هذه هي الأفكار الفلسفية الثلاث التي تتردد في شعر الشابي ، وتتكون منها نظرتة إلى الحياة ، إرادة الحياة والبقاء للأقوى هما الجانبان الإيجابيان في هذه الفلسفة ، والحيرة والاضطراب أمام الموت والتفكير العميق فيه باعتبار معضلة أليمة من معضلات الحياة ... ذلك هو الجانب السلبي في هذه الفلسفة ، الجانب الحزين الكئيب الذي يواجه به الشاعر وحشة الحياة ، وفراغ بعض لحظاتها من المعنى ، وانفجار الكارثة في لحظات أخرى منها ، وهي كارثة بلا مقدمات ولا أسباب معقولة ، إنها أشبه بالكارثة الإنسانية التي أسماها أديب فرنسي هو ألبير كامى باسم (العبث) ، ذلك الشيء المخيف

الذى يتلغ الحياة ، ويذبحها ، ويقضى عليها .

ومرة أخرى نقول : إن الشابي من الشعراء العرب القلائل والقلائل جداً ، الذين حاولوا أن يصلوا إلى المستوى الفلسفى الرفيع ويتخلصوا من مفهوم الشعر الجميل بألفاظه وأنغامه فقط . حيث حيث يندفع هذا النوع من الشعراء إلى الحديث في قصائدهم عن موضوعات تافهة ، ولا بأس أن يقول خواطر متناثرة متناقضة ، فينقى في المساء ما أثبتته في الصباح . إن الشابي يرفض هذا كله ويعتبر الشعر الجميل حقاً هو وظيفة إنسانية رفيعة ، تتصل بأعماق :

الحياة وأعماق الإنسان ، وتحاول أن تواجه المشكلات الكبرى في هذا الوجود ، بدلاً من مدح إنسان أو البكاء على طلل من الأطلال أو الاشتراك في المناسبات السطحية المختلفة .

إنه شاعر فلسفة شاملة عميقة ، وإن كانت ظروفه السيئة لم تتح له أن يصل بهذه الفلسفة إلى النضج الكامل فإنه بلا شك قد سار في الطريق الصحيح للشعر الرفيع ، ووصل إلى أعلى درجة يمكن أن يصل إليها شاعر عظيم في مثل سنه وظروفه الصحية والاجتماعية والثقافية ، وهى ظروف أقل ما يقال عنها : إنها كانت ظروفًا عسيرة .